من ذكرياتي

للاستاذ عبد العزيز البشري

تفضلت (الرسالة) فدعتني إلى أن اجري بحديث في العدد الذي ترصده لرأس السنة الهجرية . ولم يجد طول التعذر بالمرض ولقس النفس وحرج الصدر . لقد أمر أصحاب (الرسالة) وكيف لي بعصيان أصحاب (الرسالة) ؟ . إذن فلأعص نفسي ولأنشز على وهني في طاعتهم والاستجابة لهم . وحسبي الله ونعم الوكيل فيم أكتب وماذا أكتب إذن ؟

أقول في الأدب ! سيقول فيه أصدقائي الدكتور طه ، والاستاذ أحمد امين ، والاستاذ الزيات ، وغيرهم من صفوة الأدباء . ولست احب لنفسي أن أكون فسكلا لأبلغ السبق ، إن أنا بلغته ، إلا بعد جميع الجياد !

إذن أكتب في السيرة النبوية الكريمة ، ونحن على شرف عام هجري جديد ، يتجرد لذكراه هذا العدد العتيد ! لا والله ، ولن أخدع في هذا أيضاً بعد الذي كتب هيكل في (حياة محمد) وطه (على هامش السيرة)

لقد أصبح علي ، بعد هذا ، أن أتقرى السبل فأختار أعبدها لي ، وأوعرها عليهم جميعا ، وهم ولاشك تاركي أجوز وحدي فأكون المجلي في حلبتي على كل حال .

ساحدث القراء عن بعض ماشهدت بنفسي مما يرجع الى أكثر من خمس وثلاثين سنة . ولست أحسب أن أكثر أدباء العصر شهدوه لقصر اسنانهم . فمن قد علت به السن منهم فلعله ممن لم يكن هبط بعد القاهرة في طلب أواسط العلم وأعاليه . فمن تهيأ له منهم أن يكون في القاهرة ، وهؤلاء من القليل أقل ، فلعله كان في شغل من تحصيل العلم والاكباب على الدرس عن شهود هذا والاحتفال له . فان كان قد وقع لبعضهم هذا عفواً فهو عنده دون ان يجمع له همه ويطوي عليه قلبه ، ، ويختزنه في نفسه اختزان البعير الطعام في جوفه ليجتر منه وقت حاجته .

لقد قدر لي ، والحمد لله ، ان اسمع من عظماء المغنين المرحومين عبده الحمولي ، والشيخ يوسف المنيلاوي ، ومحمد عثمان ، والشيخ محمد الشنتوري ، والسيد أحمد صابر ، وعبد الحي حلمي ، وابراهيم القباني ، واحمد حسنين ، وأحمد فريد ، ومحمد سالم . ومن الهواة السيد عبدالسلام الدقاق . وان أسمع من المنشدين ومن في حكمهم الشيخ سلامة حجازي ، والشيخ احمد المحروقي ، والشيخ عبدالله الأودي ، ومن صدور القراء السيد الصواف ، والمشايخ حنفي برعي ، واحمد ندا ، وعلي الفلاحة ، واللبان ، وابا السعود ، وعلي يوسف ، وعلي الجنيد ، والماخلي ، والعيسوي . والشيخة أسمهان ، كما سمعت هؤلاء المعاصرين الأحياء . وصل الله في أعمارهم يمتع بهم الأبناء والأحفاد ، كما متع بسلفهم الآباء والاجداد .

ولست أحاول في كلمات ارتجلها للرسالة ارتجالا ، وأرسلها من عفو الحديث إرسالا ، أن أتحدث عن هؤلاء جميعاً . وما كان هذا المقام ليحتمل هذا كله ولا بعضا من بعضه . بل ولست أحاول أن أستغرق بالحديث واحداً من هؤلاء ، فأدل على منجمه ومنشئه وخلقه وسيرته ، ولون صوته ، ومأتى فنه ، وعمن أخذ ، وكيف ذهب ، وهذا أجد في الفن بصنعته . فذلك مما يستهلك الكثير من الصحائف ومن الوقت والعزم معا ، ولكنني أكتفي بذكر اثنين من أحداث أربعة شهدتها بنفسي . ولو قد حدثتني بها محدث لاتهمته بالغلو إذا لم أعدل به الى التزيد . وأحدها ، كان من محمد عثمان ، وهذا أدخره للمحاضرة التي ألقيها في شأنه ، والثاني من الشيخ أحمد ندا . وهو من أشياء أضيفها الى المقال الذي كتبته في عقب موته . أما الحادثان اللذان أطالع بهما قراء (الرسالة) اليوم فاحدهما يتصل بعبده افندي الحمولي ، والثاني بالشيخ علي الجنيد ، عليهما رحمة الله

وقبل أن أسترسل بالحديث أرجو أن الفت الشباب الى شيء واقع داثر شديد الدوران بين الناس . ذلكم أن الانسان بطبعه أثر شديد الأثرة ، فهو لا يحب بل ولا يكاد يطيق أن يبرعه أحد في سبب من أسباب الحياة . ومن هذه الخلة أصاب الحسد مدخله من نفوس الناس ، ولهذه الأثرة ، أو لهذا الحسد مظاهر شتى وآثار تختلف وتتفق وتلتقي وتفترق . ومن أغربها في طباع المصريين ، بوجه خاص جحود فضل القائمين في الحياة . فان لم يكن إلى هذا سبيل فهنالك الذرائع المختلفة لتهاون أقدارهم ، والحط من حظوظهم في اقطار الفضائل والنعم . فاذا أعيا هذا على الناس أيضا راحوا يشيدون

بفضائل من تقدموا ، وينجلو من الأسباب ما يبرعون به القائمين فى مزاياهم ، ويجهرونهم به فى جهار حلق ، أو جمال فن ، أو جمال صوت ،

وكلما علت بالمرء السن تزيد فى هذا وأسرف لاحد المعاصرين من أهل الفضل ومن أصحاب الفن وحدهم ، بل مكايدة أيضا لهؤلاء الناشئين الذين يستقبلون الحياة وتحيونا) لهم بما ظفروا به من دونهم ، وليس الى عودتهم من سبيل . فكأنهم يقولون لهم : إننا لن نأسى على ادبارنا ، وانكم لن تفرحوا باقبالكم . لأن لكم ان تصيبوا من الطيبات ما أصبنا ، ولن تظفروا من متع الحياة ببعض ما ظفرنا .

ولقد أدركنا طرفا من حياة ملك المغنين المرحوم عبده الحمولى ، فكان إذا أطرب وأفلق تبادر القعديون وقالوا : وأين هذا مما كان يصنع المقدم أو البيطار ؟ . وكانت الوردانية إذا جلجلت بصوتها الحنان قالوا : إن هذا إلا مزعة من صوت ألماس ! . كذلك أدركنا صدرا كبيرا من عهد حنفى برعى وأحمد ندا ، وسمعنا منهما العجب العاجب . ولكن يأبى القعد لنا إلا تكديرا وانطواء على الحسرة لما فاتنا من صوت القيسونى ، وكان صوته يقف الطير فى جو السماء ! . وغير هذا من فنون المبالغات تكدر صفو الناشئين ، وتبطرهم على ما أزل الله لهم من ألوان النعم !

وإنى قضاء لحق التاريخ أقرر أن من الأصوات القائمة الآن ما لا يقل فى قوته وحلاوته وصفاء جوهره عن خير ما سمعنا من ثلث قرن خلا . على انه إذا كان مما يوهن من تلذيذ الناس بسماع الغناء وشدة الطرب عليه تلك الحلة التى أسلفت عليها القول ، فقد جد على ذلك عنصران كان لهما ، فى هذا الباب ، خطر عظيم : أحدهما شدة اشتغال الجمهرة بالأحداث السياسية ونحوها ، فلم تعد تجتمع لهذا ببعض ما كان يجتمع له السلف ، إلى ما ورثت هذه الأسباب من كدر فى النفوس هيهات أن يأذن لها بالخلوص للطرب على الغناء .

وأما الثانى فهذه الثورة العنيفة المشبوبة فى الفن نفسه بحكم التطور والتحول من القديم إلى جديد يراد . وهيهات أن تستريح الأذن إلى ما لم يقر من بعد له قرار . ولعل الحال لو استقرت ، والنفوس لو صفت ، لخرج لنا من هم خير ممن تقدمت بهم الأيام .

ومهما يكن من شىء فحرم هذا الجيل من نعمة تلك الأثرة والتنغيص على من دونهم من النبت اذا صح أن يدعى ذلك نعمة ! والفضل كله للرجل العظيم (إديسون) مخترع الفونغراف ، فقد دون الأصوات ، وسجلها على وجه الزمان !

والآن وأنا مقبل على ما أنا بسبيله ، أشعر أنى قد تورطت فى اختيار هذا الموضوع أشنع التورط . ولعل ما هربت منه كان أرفق بنفسى مما استعصمت به ، وخاصة بعد هذا الذى قدمت من الكلام . ولقد قال أصحاب قواعد السلوك إن الرجل المربى خليق به ألا يروى ما يقع له من نوادر الحوادث وغرائبها لئلا يسرع الناس إلى النيل من مروءته ، واحالة أمره الى التزيد والخلق طلبا للمكاثرة بشدة الاغراب . على ان مما يلين لى هذه الرواية ويشد من متنى فى قصتها ان لا يزال فى الاحياء آلاف ممن شهدوا أمثال ما شهدت ، بل وممن شاركونى فيه بالذات . فلنمض لحديثنا والله تعالى المستعان .

عبده الحمولى :

لم يكن يتهيأ لفتى حدث مثلى أن يسمع عبده الحمولى فى سهولة ويسر . فلقد كان ، فى العادة ، لا يغنى إلا فى بيوت الطبقة (الأرستقراطية) . ودون أبوابها لزوم الحجاب وعصى الأحراس ، فمن سبيل الا فى الغفلة من أعينهم ، أو بالرشوة فى أيديهم ، أو فى أعجاز الليل بعد منصرف السادة المدعوين . وعلى بعض هذا أذن الله أن اسمع ملك المغنين بضع عشرة مرة .

وبعد فعبده ، وتاريخ عبده ، وفن عبده ، وصنعة عبده ، وبدع عبده ، كل اولئك غنى عن التعريف والتبيين . ولكننى أبادر فأقرر أن صوت هذا الرجل على جلالته ، وحلاوته ، ووفائه بكل مطالب الغنم فى جميع الطبقات ، لم يكن بالموضع الذى يتمثل لأوهام من لم يسمعوه من أهل هذا الجيل . بل إن من القائمين من لعله يجهره فى هذا المعنى من الجمال . ولكن لا يذهب عنك أن وراء هذا الحس المرهف ، والذوق الدقيق ، والفن الواسع ، والكفاءة الكفيلة والقدرة القادرة على التصرف فى فنون النغم فى يسر ولباقة وقوة ابتكار ورعاية لوجوه المقامات المختلفة . والتوفيق الى كل ما يغمز على الكبد . ألا لقد جمع الله أحسن هذا كله لعبده الحمولى . فلم ينته أحد فيه ممن سمعنا منتهاه اذا استثنيت صاحبه المرحوم محمد عثمان على اختلاف غير قليل بين فتى الرجلين .

وانى لأذكر أنى سمعته مرة عند مطالع الفجر ، وكان ذلك فى دار المرحوم السبكى بك فى شارع الطرقة الشرقى . ولعله كان قد مسه طائف من الشجى ، فكاد يحيل العرس مناحة من كثرما تبادر لنغمه الشجى من دموع الناس .

أما الحادثة التى أوثرها بالرواية فلقد كانت فى دار رجل من خؤولتنا أولم لتزويج ابنه ، وداره تقع فى حى الناصرية ، وكان صديقا حميما للمرحومين عبده الحولى والشيخ يوسف المنيلاوى ، وكان أثيرا عندهما كريم المحل منهما ، وقد دعاهما كليهما ليغنيا معا فى عرس ابنه ، فلبيا الدعوة خفيفين .

وأنت بعد خبير بأن (أفراح) أولاد البلد لايحجب عنها الناس ، ولا يدفعهم من دونها شرط ولا أحراس . وكذلك اكتظ السرادق بالمئات إن لم أقل بالآلاف من أصناف خلق الله .

ويستوى عبده الى (التخت) ، ويتدلى فى الميدان يحمى ظهره الشيخ يوسف وأحمد حسنين ، ونصر الحصاوى ، عليهم رحمة الله ، وشيخ المغنين الآن الأستاذ محمد أفندى السبع ، نعمه الله بأطيب الحياة ، ومعهم السيد أحمد الليثى بعوده ، (أوالجركشى ؟ لاأذكر) وأمين أفندى بزرى بنايه ، وابراهيم أفندى سهلون بكمانه ، ومحمد افندى العقاد بقانونه ، فغنوا وعزفوا ماشاء الله أن يغنوا ويعزفوا حتى تموا مايدعى (بالوصلة) الأولى ، ولست أذكر ما تغنوا فيه من الاصوات . ثم استراحوا برهة من الزمن عادوا بعدها إلى شأنهم . وما برح عبده ، رحمة الله عليه ، يضطرب بين الليل والعين . ثم ينقلب إلى الموالياً فيرجع فواصله ترجيعا . حتى اذا فعل فى هذا كله الافاعيل ، وصنع مالا ترتق إلى صفته الأقاويل ، أقبل يغنى ، والجماعة معه (الدور) المشهور وهو من نغمة العراق :(١)

« لسان الدمع أفصح من بيانى وانت فى الفؤاد لابد تعلم
هويتك والهوى لجلك دوانى ولكن كل دا ماكانش يلزم »

الى آخر ما يدعى فى عرف أصحاب الغناء (بالمذهب) . ثم أمسك القوم لحظة خرج بعدها عبده منفردا ، وقفى العقاد على أثره بقانونه . وقال الجبار : « أدينى صابر على ناري » !!!!

لست بمستطيع يامعشر القراء أن أقول لكم كيف قالها الرجل ولا كيف صنع . لأننى أنا نفسى لا أدرى ، ولا احسب أحداً من الخلق درى كيف قال الرجل ولا كيف صنع ! . ولكننى أستطيع أن أقول لكم إن طائفا عنيفا جداً من الكهرباء سرى فى هذا الحشد كله لم يسلم عليه أحد : جمد الناس جميعا ، وتعلقت أنفاسهم ، وشل كل مناط للحركة فيهم ، فما تحير منهم الا أبصارا شاخصة وأفواها مفغورة . لو اطلعت عليهم لخلتك فى موقف يجمع فيه منحوتة لاأناسى يترقرق فيها ماء الحياة : حتى القائمون بالخدمة ، لقد مسهم هذا الطائف فجمدوا وثبتوا : وحتى رداف عبده لقد جرى عليهم من هذا ماجرى على سائر الناس !!!

ولقد ظلت هذه الحال زهاء عشرين ثانية ، أعنى قرابة ثلث الدقيقة . وينفجر البركان الاعظم يتطاير عنه الحمم ، وترى الخلق يموج بعضهم فى بعض ، لايدرى والله أحد أين مذهبه . ولا تسل كيف قدت الحناجر من الشهيق ، ولا كيف بريت الأكف بالتصفيق . وخرج الأمر ساعة عن عرس مقام الى مستشفى مجانين . رفعت فيه الحوائل وفتحت الابواب ، ونحى عنه احراسه من الشرط والحجب

والى هنا أراني قد أطلت بما لم يدخل فى صدر حسابى . ولعلى بهذا أمل وأضجر . وعلى كل حال فقد تعبت وجهد بى فلا تقف إذن عند عبده الحولى . أما حديث الجنيد فأرجئه الى كرة أخرى ، وأرجو ألا أوفق الى مثل هذا أبدا ؟

عبد العزيز البشرى

(١) ينسب هذا الدور الى اسماعيل باشا صبري ولكل من عبده ومحمد عثمان فيه لحن

الملاح التائه
ديوان الشاعر على محمود طه
يصدر
فى اول مايو